

## الأسلوبية الصوتية في القرآن الكريم ( الإيقاع )

الطالب: صالح زيدور

المشرف: د أحمد بن عجمية

جامعة أحمد بن بلة (1) - وهران (الجزائر)

### ملخص المقال:

الإيقاع في القرآن الكريم يصنعه الصوت الناتج عن براعة النظم والتأليف والترتيب الدقيق للكلام الجيد الحسن، فإذا توخينا تحديد ظاهرة الإيقاع فنجدها مبثوثة في كل ظاهرة صوتية لا يمكن الفصل بينها وبين ظاهرة الإيقاع لأنها جزء لا يتجزأ منه فنجدته مرتبط بأصغر وحدة تركيبية وهي الكلمة إلى الصياغة وخاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم، بالإضافة إلى عوامل خارج نطاق الكلام أو التأليف في حد ذاته وهي حسن الصوت القارئ وإجادته للتلاوة ودقتها من خلال مراعاة ضوابط التلاوة من مخارج الحروف (مد و إدغام وإخفاء ... الخ) وهذا ما يجعل الصوت رقيق شجي يضيف جمالا وحسنا على الكلام ويربطه بالإحساس والشعور عند سماعه مما يحدث تأثيرا في نفوس سامعيه.

### المقال:

يعد الصوت في القرآن الكريم من أهم العلوم التي اعتنى بها العلماء وسخروا لها الجهود لإبراز مدى تفاعل الأصوات مع معانيها ومد تلاؤم وتناغم التراكيب حتى تجري على اللسان في انسجام واتساق وهذه البلاغة الصوتية تتميز بعض أساليب في أدائها بالسلاسة وتوازن وهذه سمة تبلغ قمة التحقيق في القرآن، وقد أشار إلى ذلك دارسو الإعجاز لكن بصورة خفية لا تكاد تبلغ الاهتمام المرغوب، كالباقلائي والرماني وعبد القاهر الجرجاني، أما علماء البلاغة فقد أشاروا إلى بعض الظواهر البلاغية التي لها صلة بالصوت من الجناس والسجع والطباق والمقابلة التي لها أن تحدث توازنا صوتيا في التأليف التي تعكس جمالية اللفظ وجزالته، وهذه من القيم الصوتية في أداء اللفظ الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى في قوته وضعفه وجماله وقبحه وهذا ما يعرف بالصورة الكلامية التي جمع بين الصوت ودلالته.

والصوت: كما يقول الجاحظ: " هو آلة اللفظ وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت" <sup>(1)</sup>، ومنه تظهر أهمية الصوت ههنا لحمله تصور المعنى نطقاً، إذا كان الأداء سليماً، فحققتنا مخارج الحروف وراعينا ظواهر النبر والتنغيم والوقف بهذا يعد القرآن الكريم أسماً نموذج في البلاغة الصوتية ومن

خلاله ندرك المغزى من قوله صلى الله عليه وسلم: "زينوا القرآن بأصواتكم"، والمقصود هو حسن الأداء والنطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة وحسن للتراكيب اللغوية التي تعطي إيقاعاً معيناً. ويتضح مما سبق أن البلاغة لا يمكن أن تتجاوز الإطار الصوتي لجرسه وإيقاعه واعتداله وما يحدثه من إبراز للمعنى وتأكيده وتسلسله ونظامه، وتحقق مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وبهذا يكون أسلوب القرآن الكريم وما جاء عليه من انسجام واتساق وتوازن يحقق غاية التأثير والفت والجذب لكل سامع له والناس بطبعهم يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء.

ويجمع علماء اللغة من القدامى والمحدثين على أن سر أسلوب القرآن هو في مخارج الحروف. وفي هذا يقول الراجعي: "إن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية خلقت في نفس الإنسان"<sup>(2)</sup>، وتعرف البلاغة في علم اللغة الحديث بالأسلوبية الصوتية.

**الإيقاع:** والإيقاع من أهم السمات في القرآن الكريم، حيث تجتمع فيه كل عناصر النظم، من اتساق وانسجام واختيار للألفاظ ومناسبتها وملاءمتها لذلك، بالإضافة لخاصيتي الركنية والتجاور فيخرج لنا بصوت شجي ممزوج بالشعور والإحساس، ويطلق على هذا الصوت الإيقاع.

#### - تعريف الإيقاع:

**أ- لغة:** ورد في لسان العرب عن معاني العرب قوله:

التوقيع: زمني قريب لا تباعده، كأنك تريد أن توقعه على شيء.

والتوقيع: الإصابة، والتوقيع: إصابة المطر بعض الأرض وأخطاؤه بعضاً، وقيل إثبات بعضها دون بعض. والتوقيع في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه، وقيل هو مشتق من التوقيع وهو مخالفة الثاني للأول.

والإيقاع، إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها. وسمى الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه في ذلك المعنى كتاب (الإيقاع)<sup>(3)</sup>.

ومن المعاني التي وردت لمعنى "الإيقاع" يدرك أن أصلها هو: أن توقع معنى من المعاني في نفس المتلقي، ومن هذه المعاني التي أرادها للتوقيع والإيقاع ندرك أن أصلها هو: أن يوقع الشيء على الشيء المتعدد الأجزاء، فيصيب قسماً منها ويترك الباقي ويتجلى ذلك في التوقيع في الزمن، وتوقيع المطر، وتوقيع الكتاب، وإيقاع الألحان<sup>(4)</sup>.

والإيقاع كلمة اختص باستخدامها اللغويون والمهتمون بالنظم والتأليف في مجال الفني والأدبي من موسيقى وشعر، لذا لا يمكن أن نجد عندهم تعريفاً موحداً وإنما يرتبط أشد الارتباط بالانطباع

الذي لا يتولد لدى المتلقي عند سماعه لأمر ما، فقد جاء هذا المعنى في اللسان قوله: "ووقع منه الأمر موقعاً حسناً أو سيئاً"<sup>(5)</sup>، وعرفه الفيروز أبادي في القاموس المحيط كما جاء في اللسان قوله "والإيقاع إيقاع الحان العناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها"<sup>(6)</sup>.

ومن هنا يربط بين الإيقاع والحناء من خلال تمييز هذه الألحان، كلا بإيقاعها الخاص، وهذا التعريف يعبر عن نشأة المصطلح في ارتباطه بهذا المجال وهذا المعنى وارد في الإيقاع الموسيقي للآلات الموسيقية والإيقاع الموسيقي للألحان. فالعازف على الآلة الموسيقية يوقع بأصابعه على بعض أوتار تلك الأدلة دون بعضها وينبعث من هذه الأوتار نغمة خاصة هي الإيقاع الموسيقي.

والمتحدث عندما ينطق لفظاً: فكأنه- نظراً لاختلاف مخارج حروف اللفظ- يوقع على بعض أوتاره الصوتية دون الأخرى، فتنبعث من الفم نغمة خاصة وهي الإيقاع الموسيقي للفظ<sup>(7)</sup>.

وجهازنا الصوتي أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقية تخرج منها الألحان بنغمات مختلفة، ودرجات متباينة من الشدة والضعف، والسرعة والبطء وغير ذلك من الصفات التي شرحها علماء الأصوات وعلماء التجويد والقراءات<sup>(8)</sup>.

**ب- اصطلاحاً:** عرّفه الدكتور "محمد غنيمي هلال" بقوله: الإيقاع يقصد به وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في بيت، أي توالي الحركات والسكنات على منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام. أو في الأبيات القصيدة وقد يتوافر الإيقاع في النثر، مثلاً فيما سّماه قدامه (الترصيع) حتى عاد تعريضك تصريحاً وصار تعريضك تصحيحاً، وقد بلغ الإيقاع في النثر درجة يقرب بها كل القرب من الشعر، أما الإيقاع في الشعر فتمثله التفعيلة في البحر العربي، فمثلاً (فاعلاتن) في بحر الرمل تمثل وحدة النغمة في البيت... لأنّ المقصود من التفعيلة مقابلة الحركات والسكنات فيها بنظيرتها في الكلمات في البيت من غير تفرقة بين الحرف الساكن اللين وحرف المد، والحرف الساكن الجامد<sup>(9)</sup>.

وهذا التعريف يقودنا إلى التعريف بين أمرين:

**أولهما:** الوزن التمثيل في مجموعة من التفعيلات التي تتألف منها الأبيات المكونة للقصيدة، حيث نجد أن "الوزن يستقيم إذا كانت التفاعيل متساوية كما هو الحال في الكامل والزجر وغيرهما أو متجاوبة كما هو الحال في الطويل والبسيط وغيرهما، إذ نرى التفعيل الأول مساوياً للثالث والثاني مساوياً للرابع"<sup>(10)</sup>.

وهو الأمر الذي حدا بعلماء الموسيقى إلى أن يقسموا الإيقاع إلى نوعين:

**- إيقاع موصل:** وهو كل مجموعة من النقرات بينهما أزمنة متساوية.

-إيقاع منفصل: وهو كل مجموعة من النغمة بينهما الأزمنة متفاضلة.

ونجد من خلال هذا أن النقرة تلعب دوراً أساسياً في تحديد التفعيلات<sup>(11)</sup>.

ثانيهما: وهي النغمة الناتجة عن تكرار الحركات والسكنات والتكرار المنتظم للنبر في الإيقاع وصوت النغم عند أبي حيان التوحيدي عبارة عن "فعل يشاكل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة متعادلة"<sup>(12)</sup>، حيث يتكون الإيقاع على إثر هذه الفواصل المتناسبة لهذا كان ما يسعى إليه الموسيقيون والشعراء هو مراعاة المساواة بين الأبيات في الإيقاع والوزن الشعريين بين الفصل بينهما في بناء الإيقاع.

كما يعرفه الدكتور منير سلطان أي الإيقاع على أنه: "حركات متساوية الأدوار تضبطها نسب زمانية محددة المقادير، على أصوات مترادفة في أزمنة تتوالى مساوية كل منها تسمى دوراً وهو جماعة نقرات تتخللها أزمنة محددة المقادير على نسب وأوضاع متساوية بأدوار متساوية"<sup>(13)</sup>.

-وسرعة النقر أو بطئه تلعب دوراً أساسياً في تحديد زمن الإيقاع، سواء كان طويلاً أو متوسطاً أو بطيئاً، ومثال ذلك التفعيلات التالية التي تضرب كمثال

1-فاعلاتن: ونجدها تشكل من 0/0//0/

وعليه تكون هذه التفعيلة تتضمن أربعة متحركات أي أربعة نقرات كالآتي:

-بين النقرة 1 و2 زمن متوسط أو طويل.

-بين النقرة 2 و3 زمن قصير يكاد ينعدم.

-بين النقرة 3 و4 زمن متوسط أو طويل.

الأمر الذي يميز هذه التفعيلة حيث يجعل إيقاعها مختلفاً عن تفعيلة أخرى.

2- متفاعلن: ونجدها تشكل من 0//0///

وعدد حركات هذه التفعيلة هو خمسة نقرات مما يمثل حركات

-بين النقرة 1 و2 و3 أزمنة قصيرة جداً تكاد تنعدم.

-بين النقرة 3 و4 زمن متوسط قد يطول.

-بين النقرة 4 و5 زمن قصير جداً يكاد ينعدم.

ونستخلص من هذا أن الإيقاع يحدده الزمن الفاصل بين النقرات، حيث يجعل كل تفعيلة تتميز عن غيرها من التفعيلات في انسجام تام بين الوزن والصوت<sup>(14)</sup>.

ولكن هناك من يفصل بين الوزن والصوت المنسجم في تشكيل الإيقاع مقدماً الأصوات الإيقاعية في الشعر على الأوزان العروضية فحسب "استوفر"<sup>(15)</sup> فان توفير هذه الحركات من الأصوات أشق

بكثير من توفير الوزن باعتبار أن الإيقاع يختلف باختلاف الألفاظ المشكلة للقصيدة، في حين أن الوزن لا يتأثر بالألفاظ الموضوعية فيه، تقول "عين" وتقول مكانها "بئر" وأنت في أمن من الإخلال بالوزن، ولكن الإيقاع عبارة عن تلوين صوتي ناتج عن فصاحة الألفاظ والتتامها لذلك نجده يصدر عن الموضوع، في حين الوزن يفرض على الموضوع، الأول من الداخل والثاني من الخارج، وهذا وجهة نظر المفهوم الغربي للإيقاع والذي يبين فيه "استوفر" على فكرة أن الشعر إيقاعاً لا وزناً.

وهناك من يعرف الإيقاع تعريفاً جمالياً تأثيرياً قام على الأثر الذي يتركه الصوت في نفس المتلقي وفي شعوره، فالإيقاع "فن في إحداث إحساس مستحب بالإفادة من جرس وسواها من الوسائل الموسيقية الصائتة"<sup>(16)</sup>.

على أن هذا الإيقاع يحتاج إلى: "سماع يتقبله أو يستقبله ويستجيب له ويتجاوب معه، لأنه ذبذبات وتموجات لا ترى ولا تلمس"<sup>(17)</sup>.

ولعل هذا ما يوضح أن الإيقاع هو صلة وثيقة بالسمع الذي يعتبر أداة تؤدي إلى معرفة قيمة وجمالية مختلف الإيقاعات، الأمر الذي يهتز له شعور المتلقي وفقاً للأثر الذي يتركه في النفس، بناء على درجة الإيقاع.

كل هذا ناتج عن النغمات الصادرة وفق خصائص يتفرد بها كل إيقاع، لأنه يؤدي وظيفة فعالة في إيجاد نوع من التواصل بين المتلقي وتلك الأصوات المؤثرة.

إن هذه السمات تضيف نوعاً من الائتلاف الذي يبرر على أساس أنه: "الفاعلية التي تنقل إلى المتلقي ذي الحساسية المرفهة الشعور بوجود حركة داخلية، ذات حيوية منافية تمنح التتابع الحركي وحدة نغمية عميقة عن طريق إضفاء خصائص معينة على عناصر الكتلة الحركية، تختلف تبعاً لعوامل معقدة"<sup>(18)</sup>.

إذن، فالإيقاع يحقق الجمالية التأثيرية التي تصل أحياناً إلى حد التأثير في جسم الإنسان-التي تربط بين المتلقي المالك للحس المرفه وبين الأثر المنتج لذلك الإيقاع الفعّال "ولعل ما يفسر هذا هو أن الإيقاع ينتظم متوالياً، رغم وجود ذلك التغير الكيفي في بنائه، بصرف النظر عن الاختلاف الصوتي"<sup>(19)</sup>، وبهذا يكون الإيقاع موجوداً في جميع الفنون مع وجود متغيرات معينة من فن لآخر وتظهر أكثر في الموسيقى.

إن الإيقاع عنصر مشترك في الفنون الجميلة: فالإيقاع الصوتي والإيقاع المعنوي متساويان في الأدب، وهما جزءاً أساسياً في التعبير، لأن الدلالة اللغوية وحدها لا تكفي في العمل الأدبي،

والإيقاع في التصوير كذلك كائن ولكنه إيقاع تتولى العين تمييزه بدل الأذن، وتلاحظه في تناسق الألوان والخطوط، كذلك في النحت فهو ملحوظ في الانحناءات والأوضاع والأبعاد، ولكن الإيقاع في هذه المواضع وتلك مجازي، وقد استخدم لفظ بدل لفظ التناسق وما زال لكل فن خصائصه<sup>(20)</sup>.

والإيقاع بمعناه الحقيقي لا يتحقق كاملاً إلا في الموسيقى ويتحقق جزئياً في أوزان الشعر والتنغيم في النثر<sup>(21)</sup>.

وقوانين الإيقاع سبعة هي:<sup>(22)</sup>

- 1-النظام - 2- التغيير - 3- التساوي - 4- التوازي - 5- التوازن - 6- التلازم - 7- التكرار.

إن اجتماع والتحام هذه القوانين السبعة مع بعضها البعض هو الذي يشكل الإيقاع ولأن اللغة العربية لغة شاعرة ووفقاً لما دأبت عليه الطبائع البشرية من التأثير بالإيقاع الرفيع، ولأن القرآن الكريم إعجاز بياني كامل، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن القرآن الكريم يعتبر منهلاً خصباً لمختلف الإيقاعات الموسومة بالإعجاز، تؤثر في النفس الإنسانية بحسب ما ذهب إليه "الخطابي" فرأى أن الإيقاع القرآني له " صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلوب من لذة وحلاوة ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب، والقلق وتغشاها الخوف والفرق، وتقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"<sup>(23)</sup>، ومن ذلك قوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾<sup>(24)</sup>.

وانطلاقاً من هذا فإن الإيقاع في القرآن الكريم يتماشى والأجواء الموجودة في النص القرآني مما يجعل سوره تتمايز عن بعضها البعض باختلاف جو كل سورة، والذي يتمثل فيه الأسلوب الفني المعجز، فلا بد أن يوجد فيه الإيقاع الموسيقي المعجز، ولا ضرر من نسبة الجرس والإيقاع إلى أسلوب القرآني وأن نلاحظ وجودها فيه، وأن بينها للناس كافة، لأن القرآن الكريم يسير على سنن العربية وأساليبها في التعبير.

إن الموسيقى تكمن في أسلوب القرآن وإن الإيقاع الموسيقي فيه يتألف من عدة عناصر:

- 1- من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة.
- 2- ومن تناسق الإيقاع بين الكلمات الفقرة.
- 3- ومن اتجاهات المد في الكلمات.
- 4- ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطرودة في البيات.
- 5- ومن حرف الفاصلة ذاتها<sup>(25)</sup>.

وقد بين "سيد قطب" بعض الأسباب التي حملت على الانبهار من القرآن الكريم بإيقاعه وجماله اللفظي والمعنوي، فقال: "إنَّ القرآن الكريم قد راع خيالهم، بما فيه من تصوير بارع، وقد سحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسامعهم بما فيه من إيقاع جميل وتلك هي خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعل"<sup>(26)</sup>، على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً.

وقال الزركشي: "يحكي أن أعرابياً سمع قارئاً يتلوا قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾"<sup>(27)</sup>، قال كسرت إنما قال: "يا أيها الناس اتقوا ربكم .... زلزلة الساعة شيء عظيم" فقليل له: هذا القرآن وليس بشعر"<sup>(28)</sup>.

إن المتلقي عند ما سمع هذا الكلام اعتقد لأول وهلة أنه شعر فحذف "إنَّ" ليستقيم الوزن حسبما يعلمه، فلو أخذ المتلقي بالإيقاع الذي ألفته أداة التوكيد "إنَّ" لعلم ذلك التجانس الدقيق بينها وبين المطلع فهو "مطلع عنيف رهيب، ومشهد ترتجف له القلوب، يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً " يا أيها الناس يدعوههم إلى الخوف من الله "اتَّقُوا رَبَّكُم" ويخوفهم ذلك اليوم العصيب "إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم" وهكذا يبدأ بالتهويل الجمل وبالتجهيل الذي يلقي ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير، فيقال إنه زلزلة، وإن الزلزلة شيء عظيم من غير تحديد وتعريف"<sup>(29)</sup>.

وهذا المظهر البياني لهذا المظهر الموزون ينبي عن المجانسة الصوتية المنتجة للإيقاع ودقة مناسبة الصوت للصوت، وملائمة النطق بالحروف ومخارجها وتتابع إيقاعها في الأذن وهو يقدم تحليلاً واضحاً على تفرد القرآن وإعجازه، ويوضح أن الوزن في القرآن الكريم يختلف عن الوزن في الشعر وهذا ما سنوضح فيما يأتي.

الإيقاع اتفاق الأصوات في الغناء، وفي اللغة معناه الاتفاق<sup>(30)</sup>، ولكن نعي به هنا إحساس الأذن والنفس تناغم الصوت الحاصل من قراءة الآيات ولقد حاول الدكتور تمام حسان أن يبين

معنى الإيقاع عن طريق شرح المقاطع اللغوية والنبر وانتهى فيه إلى أن الإيقاع إما إيقاع في نطاق التوازن وإما في نطاق الموزون، والوزن في العربية إنما يكون للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر والذي في القرآن متوازن لا موزون<sup>(31)</sup>، والإيقاع الصرفي : لا يقتصر على إيقاع الفواصل في القرآن الكريم على توالي المنظومات الصوتية التي تشكل رؤوس الآي ، وإنما يتحقق هذا الإيقاع من خلال تماثل الوزن الصرفي لكلمات الفواصل، إذ إنَّ للوزن الصرفي أثراً إيقاعياً ، لا يقل أهمية عن تماثل أصوات الفواصل ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ ﴿<sup>(32)</sup> نلاحظ في الآيتين اتفاق في الوزن الصرفي للفاصلتين ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ و﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ وكذلك تماثل آخر الفاصلتين، ويشكل الإيقاع الصرفي للفواصل المتماثلة فضاءً إيقاعياً لافتاً في القرآن الكريم خاصة في السور الطوال والقصار. وهذا لا يعني أن القرآن ليس فيه إيقاع من النوع الموزون فقد انتقى الشهاب الخفاجي من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوعه للوزن الشعري وبنى من ذلك منظومة ضبط بها كميات البحور وتفعيلاتها على هذه العبارات القرآنية الموزونة ليسهل على المتعلم تذكر التفعيلات ومسمياتها البحور نذكر منها:

1- قال في تحديد كمية بحر الطويل:

|                                             |                                                                     |
|---------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------|
| أَطَالَ غُدُولِي فِيكَ كُفْرَانُهُ الْهَوَى | وَأَمْنَتَ يَا ذَا الظُّبْيِ فَأَنْسَ وَلَا تَنْفَرِ                |
| فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن                  | فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرِ <sup>(33)</sup> |
| 2- وقال في البسيط:                          |                                                                     |

|                                              |                                                 |
|----------------------------------------------|-------------------------------------------------|
| إِنِّي بَسَطْتُ يَدِي أَدْعُو عَلَى فِتْنَةٍ | لَأُمُوتَ عَلَيْكَ عَسَى تَخْلُو أَمَا كُنْهُمْ |
| مستفعلن فاعلن مستفعلن فعولن                  | فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ     |

3- وقال في المديد:

|                                         |                                      |
|-----------------------------------------|--------------------------------------|
| يَا مَدِيدَ الْهَجْرِ هَلْ مِنْ كِتَابٍ | فِيهِ آيَاتُ الشِّفَا لِلْسَّقِيمِ   |
| فاعلاتن فاعلن فاعلاتن                   | تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. |

4- وقال في المتقارب:

|                                       |                                             |
|---------------------------------------|---------------------------------------------|
| تَقَارُبٌ وَهَاتِ اسْقَى كَأْسَ رَاحٍ | وَبَاعِدُ وَشَاتِكَ بُعْدَ السَّمَاءِ       |
| فعولن فعولن فعولن فعولن               | وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ <sup>(34)</sup> . |



فأنت ترى أنه يُستشهد بكلمات من القرآن، والقرآن ليس فيه مما هو موزن ما يؤدي بيت شعري كامل، فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر، والذي في القرآن إيقاع متوازن<sup>(35)</sup>.

ويقول تمام حسان: "أن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون محالا للفن والجمال، أما الوزن فحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفي أن تنصت إلى قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم (ولا أقصد ترتيب الترتيب بل الترتيل بدون تطريب) وسترى عندئذ أن ما في القرآن من جمال التوازن قد تجاوز أحيانا جمال الوزن. وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل وبخاصة ما بنى منها على قصار الجمل وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح ما لا نجده في بعض الشعر والغناء"<sup>(36)</sup>، وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين أو انتظم اختلاف بعضها عن بعض حسن إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكميات بين نبر وآخر إذا تباينت ولم تتقارب أحس السامع كأن المتكلم يتعثر في مشيته، بل إن المتكلم نفسه لا بد أن يحس هذا الإحساس، أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذي نجده في إيقاع الأسلوب القرآني كما يتضح مما يلي من الشواهد وقدم ثم اختيار هذه النماذج اعتباطاً فيصدق على غيرها من آيات القرآن ما يصدق عليها<sup>(37)</sup>.

1- قال تعالى ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِٔاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝﴾<sup>(38)</sup>.

2- قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ۝﴾<sup>(39)</sup>.

3- قال تعالى ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾<sup>(40)</sup>.

4- قال تعالى ﴿وَإِذْ أَعَزَّزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ۖ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ۝﴾<sup>(41)</sup>.

فأنت تلمس عند قراءة هذه الآيات "أن التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب وأنه سبب قوى من أسباب ارتياح النفس له واحتفائها به"<sup>(42)</sup>.

ومن خلال ما قدمه من توضيح فيما يتعلق بالوزن والتوازن في القرآن الكريم قسم الإيقاع إلى نوعين: الإيقاع الصوتي والإيقاع التركيبي:

لقد رتل الله القرآن ترتيلاً في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾<sup>(43)</sup>، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرتل القرآن ترتيلاً في قوله تعالى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾<sup>(44)</sup>، والمعروف أن الترتيل مصدر رتل يرتل وأنه وضع المجموعات في أرتال كل رتل منها طائفة مجتمعة وبين كل رتل وما يليه انقطاع مؤقت، فأما الترتيل بالنسبة لله تعالى، فذلك أنه القرآن منجماً حسب الوقائع والأسباب النزول فإذا أنزلت آية أو آيات عد ذلك رتلاً قائماً بذاته بعد فترة انقطاع الوحي ثم يعود الوحي يرتل آخر من الآيات وهكذا وهنا المعنى لا يمس موضوعنا (وهو الإيقاع) مساً مباشراً أما الترتيل بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهو طريقة من طرق الأداء والقراءة، فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها المد بأنواعه والغنة والسكت وما إلى ذلك مما يعد من قبيل الانقطاع هي إما مد أو عنة أو سكت... إلخ، هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكريم في نصه إيقاعاً آخر طارئاً عليه من خلال الأداء والقراءة فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال والله سبحانه تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين<sup>(45)</sup> في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(46)</sup>، بالإضافة إلى هذا الكم الهائل من الكلام عن الإيقاع بوجوده في معظم الظواهر الصوتية هناك تعاريف وأنواع كلها تتشابه إلا أنها تختلف من حيث التعبير عنها باختلاف الأشخاص، ومن أهمها ما ذكر عن الإيقاع في الانسجام. الإيقاع من أسباب الانسجام: فهو صفة صوتية تخلع على التركيب توازناً وانسجاماً وعلى الجملة تعادلاً وتوازناً باعتباراه أبرز الأسباب الباعثة عليه إلى:

**1- إيقاع التنعيم:** إذا كان الباعث على الإيقاع خاصاً بنوعية المقاطع وكيفية توزيعها بحيث يكون الإيقاع بطيئاً أو سريعاً بحسب التجربة والمغزى والجو النفسي.

**2-إيقاع الصيغ:** عند ما تكون المفردات في العبارة متخيرة دقيقة فإنها تحدث قوة في السبك وجمالاً في التناسق، فضلاً عما تحدثه من إيقاع خاص ينسجم مع دلالة الجملة والعبارة، ولاشك أن تناغم دلالة المفردات يؤدي تلقائياً إلى تناغم صيغ تلك المفردات عند من لاختلطت بنفسه فطرة اللغة وأوتي حظاً من ملكة حسن التعبير، والقرآن الكريم يبلغ القمة في ذلك، خذ مثلاً قوله تعالى: (في الحكاية عن سليمان عليه السلام يتوعد الهدهد الذي غاب عن عينيه من غير إذنه في قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْخَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(47)</sup>، نجد صيغة (لَأُعَذِّبَنَّهُ)، (لَأَذْخَنَّهُ)، (لَيَأْتِيَنِي)، وهي مؤكدة باللام والنون التوكيد الثقيلة-تحدث جرساً وضغطاً عند النطق بما يصور الغضب، والتهديد اللذين يسودان هذا الموقف، وفضلاً عن هذا يحدث من توالي التوكيد باللام والنون خاصة إيقاعاً خاصاً يتناسب مع قوة المعنى<sup>(48)</sup>.

وأحياناً تشارك مجموعة من الصيغ ويتم بينهما تناسق في التوزيع وتعزز بإيقاع خاص بواسطة الضمائر المتصلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾<sup>(49)</sup>، فإن صيغة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ)، (وَلَيُمَكِّنَنَّ)، (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ)، والتناسب في الجرس بين استخلف (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) وانتهاء مفردات عديدة بالضمير المتصل (كم) مرة واحدة و(هم) ست مرات، و(ي) في (يعبدونني) التي تتناسب مع (ي) في (يشركون ي) كل هذا يسهم في تقديم إيقاع يتناسب وصيغة الآية، بحيث نشعر ونحن نردد الآية أن نغمة التمكين والاستخلاف تنبعث من الإيقاع وتؤكد المغزى<sup>(50)</sup>.

**3-إيقاع النظم:** إذا كان الباعث على الإيقاع خصائص في التعبير أو مذهباً خاصاً في التأليف يؤدي إلى السلاسة والسهولة، أو كان الباعث على الإيقاع ظواهر تعبيرية تتصل ببعض الألوان البلاغية والبديعية كالطباق والمقابلة والجناس ومراعاة النظير، فإنها وجوه وألوان تؤدي إلى توازن الجمل وتعادلها في التأليف.

ولنأخذ مثلاً في الطباق قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَلِكُ ٱلْمَلِكِ تُؤْتِي ٱلْمَلَكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمَلَكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(51)</sup>، نجد فيها جملاً متعادلة في التأليف منسجمة في التركيب، وقد أحدث الطباق ههنا دوراً في هذا التعادل والانسجام، ولأن الطباق وإن كان بين الشيء وضده، فإنه الشيء يرد في الخاطر

مع الضد على سبيل الاستدعاء فنحن بالطباق لا نسير في طريق وعر أو غريب مجهول، وإنما نسير في طريق مألوف متوقع، وكل ما تتوقعه النفس الفطنة فيأتي بحسب التوقع يحدث أنساً واتساقاً وانسجاماً.

ونجد هذه الاتساق العجيب بين الجمل المتقابلة نحو قول الحسن: (أما تستحيون من طول مالا تستحيون)، وقول المنصور (لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية)، وفي قولهم: (غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله) وقول آخر كدر الجماعة خير من صفو الفرقة وقولهم: الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.

فإنه يمكن التعويل هنا على الحس المتذوق في إدراك دور المقابلة في حسن الإيقاع، وهذا الحسن لم ينشأ فقط من التقسيم إلى جملتين إحداهما تقابل الآخر في توازٍ وتعادل نحو ما سبق من قولهم، الغني في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة، وإنما ينشأ أصلاً من مخاتلة الفكر بهذا التقابل الذي تتجانس أكثر كلماته، بدليل أن المقابلة ما لا تكون إلا جملة واحدة مفيدة نحو: كدر الجماعة خير من صفو الفرقة، وهي مع هذا في غاية الانسجام<sup>(52)</sup>.

وكثيراً ما ينشأ الانسجام من تعانق اللفظ وائتلافهما ودعك من ائتلاف اللفظ مع اللفظ فيما عرف بمراعاة النظر، فإن جماله محدود وتأثيره موقوت، أما ما يبقى أثره ولا ينهي جماله، فإنه التثام اللفظ مع المعنى، فهذا النوع من الائتلاف يتجاوب مع الفطرة ومع ميول النفس ورغباتها، فالنفس تميل إلى أن تؤدي لها المعنى الرقيق-كاستعطاف الحبيب ونحوه- في لفظ رقيق يشف عن المعنى لما تميل النفس إلى أن يؤدي لها رثاء الأحبة وبكاؤهم في ألفاظ واضحة كيلا تشتغل وهي في غمرة الانفعال بالأحزان بفك رموز الألفاظ والتعمق في فهم مدلولاتها، كما تميل النفس إلى أن تؤدي لها معاني الفخر والحرب والفروسية في الألفاظ فخمة قوية، ولا يقصد بهذا أن تكون الألفاظ غريبة، ولكن أن تكون من قوة الجرس وفخامة الأداء وروعة المعاني بحيث تنهض بالنفوس إلى مستوى الإحساس بمعنى أن تحمل الألفاظ شحنات دلالية وأن تكون موحية، بحيث تصور المعنى الذي تحمله، فإذا جاء التعبير على عكس، ما ترتضيه النفس كان أدعى لنفورها، وكان هناك حاجز بين المنشئ والمتلقي، وهذا لعدم مراعاة المناسبة بين الأعراض والألفاظ أو الائتلاف بين المباني والمعاني وبين التعبير والشعور<sup>(53)</sup>.

ومن خلال هذا فإن القرآن الكريم يتميز من حيث جمال الإيقاع والجازبية ما يؤثر في المتلقي أكثر من غيره من شعر ونثر فيجعله يتفاعل وينشط ويهتز ويخشع وكثير ما يبدل رأيه ويتجه صوب القرآن الكريم .

ويقوم هذا النوع من الإيقاع في القرآن الكريم على نوعين أو عنصرين هما:

**الأول: الجمال التوقيعي:** يحدث عند سماعك للقارئ المجدد يقرأ القرآن، يرتله حق ترتيله ... ثم اتخذت منه مكانا قصياً، لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغنائها، واتصالاتها وسكناتها، ... ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريداً، وأرسلت ساذجة في الهواء... فتجد نفسك منها بإزاء لحن غريب، لا نجده في كلام آخر... وهذا الجمال التوقيعي لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لعرب لغة العرب فكيف يخفى على أنفسهم .

**الثاني: الجمال التنسيقي:** وأنت تسمع للمرتل فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا فطرت سمعك جواهر حروفه، خارجة من مخارجها الشحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم الحروف أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس النفس ... (54).

وهذا ما يشكل إيقاعاً جميلاً يتناسب والجو الذي وردت فيه كل سورة من سور القرآن أو آية من آياته ومن أمثلة ذلك ما جاء في سورة النازعات في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۚ وَالنَّدَشِطَاتِ نَشْطًا ۚ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۚ فَالْمُصَيِّتَاتِ سَبْقًا ۚ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۚ﴾ ... ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَاحِدَةً ۚ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۚ﴾ (55)، فهذا الإيقاع يتناسب وجوها العام الذي تتحدث فيه السورة الذي تتحدث فيه السورة عن يوم القيامة حيث تميز الإيقاع بسرعة الحركة، وقصر الموجة وقوة المبني، ينسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف، وموضوع السورة يلقي جواً من الخوف والرغبة والرجفة والعنف واللع والفرع ... وهذا الجو كما مر معنا يناسب إيقاع سريع الحركة، قصير الموجة، قوي المبني وتلقي كلمات وحروف الآيات مع حركاتها وجرسها وصفاتها ومداتها وغنائها هذا الإيقاع السريع المتناسب مع الجو المخيف (56).

وفي نفس السورة في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ ... ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ۚ﴾ (57) فهذا الإيقاع يتناسب مع الجو العام للسورة والذي تتحدث في السورة عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون الذي يلي الحديث عن يوم القيامة من حديث الكرة الخاسرة والزجرة الواحدة، ويتميز هذا الإيقاع الثاني بالحركة الوانية والموجة الرخية ، المتوسطة الطول الذي

ينسجم والجو القصصي وهذا الموضوع القصصي يلقي جو التأني والإخبار والعرض والسرد، وهذا الجو يناسبه إيقاع بطيء الحركة، رخي الموجة، متوسط الطول<sup>(58)</sup>.

إن الإيقاع في القرآن الكريم، يختلف على الإيقاع في غير من الكلام سواء كان نثراً أو شعراً، كما أنه يتعدد ويتنوع من سورة إلى أخرى، وكغيره من سمات التعبير القرآني يفترق الإيقاع في التنزيل الحكيم، وهذا تبعاً لنظام الفواصل والقوافي في السورة الواحدة؛ وحتى يكون متناسقاً ومتناسباً مع الجو العام الذي جاءت في سياقها السور والآيات، فنجد من ذلك ما هو سريع يأتي فيه الإيقاع سريعاً وقوياً، وما هو بطيء رخي، وما هو طويل وما هو قصير<sup>(59)</sup>، وهو ما سنحاول دراسته من خلال سورة هود وهذا لكشف جمالها الإيقاعي، المتميز بالتناسق والتناسب مع أحداث كل آية من آياتها، وهذا ناتج عن حسن اختيار الألفاظ، وإحكام صياغتها وروعة الصورة التي يشكلها ملائمة اللفظ مع النسق الذي ترد فيه كل سورة وآية من الذكر الحكيم.

و من ذلك الإيقاع المليء بالسماحة والمودة والتلطف بنداء نوح قومه ونسبتهم إليه ونسبه إليهم في قوله تعالى ﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ﴾<sup>(60)</sup> وإنكم تعرضون فتقولون ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾<sup>(61)</sup>، فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بري، بين في نفسي مستيقن في شعوري، وهي خاصية لم توهبها وإن كان الله أتاني رحمة من عنده باختيار للرسالة، أو أتاني من خصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة منه ولا شك عظيمة - ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية، لأنكم غير متهيئين لإدراكها، وغير مفتوحين البصائر لرؤيتها ﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا﴾ إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها ﴿وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ﴾<sup>(62)</sup>.

والنداء هنا يحمل في طياته إيقاع يتميز بالتلطف والمودة، ومحاولة تبين وتوجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها: ويصبرهم بأن الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم، مبدأ الاختيار في العقيدة، والافتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء<sup>(63)</sup>.

فتحس أن كلمة ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾<sup>(64)</sup> تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق وشد بعضها إلى بعض. كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم نافرون وهكذا يبدلون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية...<sup>(65)</sup>.

ونجد من ذلك أيضاً الإيقاع المليء بالخشوع والتذلل الذي يحمل في طياته الهدوء والتلطف مما يوافق الدعاء الذي جاء في صيغته ينسجم مع المظهر الذي وردت فيه الآية في قوله تعالى ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾<sup>(66)</sup> وهنا النداء يحمل في طياته الإيقاع الهادئ الريب الحركات، والريز، رقيق الإحساس، الشجي العاطفي الإيقاع الذي يلائم تذلل نوح عليه السلام إلى ربه سبحانه وتعالى لإنقاذ ابنه من الغرق والهلاك، وهذا ما يميز عاطفة الأبوة والفترة البشرية .

أما المشاهد المرئية بما فيها من صوت، ولون، وحركة فيسيطر عليها الإيقاع المتموج الصاحب، ويتمثل لنا هذا الإيقاع الصاحب للانهيارات، وإمطار الحجارة في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾<sup>(67)</sup> "والصورة التي يرسمها السياق هنا لهذه المصيبة التي حلت بقوم لوط هي أشبه بعض شيء بالظواهر البركانية التي تحسف فيها الأرض، فتبتلع ما فوقها، ويصاحب هذا حم وحجارة ووحل"<sup>(68)</sup>، وهذا المنظر المروع بالتأكيد ينقلنا إلى الجو الذي نسمع من خلاله إيقاعاً صاخباً، هادراً، قوياً، له رنينه الحاد.

إنّ المشاهد في سورة هود عليه السلام تحدّد نوع الإيقاع أحياناً، وهذا التحديد إنّما يكون حسب طبيعة السياق، وهذا ما نلاحظه في مشهد الطوفان، فالتكوين الإيقاعي للجملة هنا يزيد على التموّج العمق والسعة، وفيه كذلك هول وشجى، إنّهُ إيقاع الطوفان في قوله تعالى ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(69)</sup> قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾<sup>(70)</sup>، ولك أن تتفكر مشهد الطوفان لتخيل الارتفاع والانخفاض، والحركة الدائبة، والمدات المتوالية، وهذا الإيقاع ينقله سيد قطب قائلاً: "إنّ التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طويلاً وعرضاً في عمق وارتفاع؛ ليشترك في

رسم الهول العريض العميق، والمدّات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع، وتكوينه، واتّساقه مع جوّ المشهد الرهيب العميق<sup>(70)</sup>.

ومن الإيقاع ما اتسع كثيراً؛ ليستوعب مساحة الحدث، هذا في قوله تعالى ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾<sup>(71)</sup>، وقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾<sup>(72)</sup>.

وقد جمع كلمة (الدار) مع ذكر الصيحة لاّتساع مساحة الصيحة التي تستوعب أرضاً واسعة، ويمتدّ الإيقاع أكثر فأكثر مع المدّ في كلمة ﴿جَثِيمِينَ﴾<sup>(73)</sup>.

ومن الإيقاع ما يحمل موجاتٍ من العجب المصاحبة لقوله تعالى على لسان سارة عندما بشرت بالولد في قوله تعالى ﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾<sup>(74)</sup>، بما فيها من مدّ يصاحبها إيقاع طويل، يدعم هذا الإيقاع الاستفهام ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ من جهة، وكلمة ﴿عَجِيبٌ﴾ من جهة أخرى، فالألفاظ السابقة تسهم في تناسق الإيقاع، وتلاؤمه مع جوّ المظهر الذي يسيطر عليه العجب.

وهناك من ألوان الإيقاع ما يتميزّ بالسرعة والحركة، ومثال هذا النوع من الإيقاع الذي يصحب صورة ما أصاب قوم لوط من دمارٍ وهلاك، والذي بدا ماثلاً في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ﴾<sup>(75)</sup>، والمتتبع لحركات الآيتين يسمع الإيقاع السريع المتلاحق . ومن الإيقاع ما يصحبه الترويع والخوف، والفرع والهول، وذلك في الآيات التي تناولت يوم القيامة، والفواصل غالباً ما تحمل جرّساً مدوّياً، ويمكن سماع هذا الصوت في قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾<sup>(76)</sup>، فقد ورد حرف الدالّ في الآية ثلاث مرات . والمعروف أنّ الدالّ: "صوت شديد مجهور... فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمع صوت انفجارٍ"<sup>(77)</sup>.

وهذه الصفات تشي بالصوت المدوّي الذي يلفت وينبه المسامع، ويقرّع الكون بالدمار المروّع يوم القيامة، وهذا أيضاً يحدثه حرف القاف الذي تكرر في الآية ثلاث مرات.



ومن الإيقاع ما يغلب عليه الطمأنينة والثبات، ويسيطر عليه السكينة والهدوء، وتبدو عليه ملامح الفرح والسرور، والتثيت وشد أزر النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(78)</sup>.  
ونجد هذا الإيقاع في قوله تعالى ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(79)</sup>.

إن مدار الإعجاز القرآني هي الأصوات المتجانسة المتناسقة في الإيقاع، الذي يبرز من خلاله تأثير هذا الكلام وهو مجرد دون ما حاجة إلى أداء رفيع، وكلما زاد تحسين الصوت، كان أكثر إيقاعاً في نفوس سامعيه وبه يتم تطرية القلوب وتطريبها، ومحل هذا جمال لغة القرآن وطبيعة الصوت، ثم يزدان بحسن القراءة على لسان من أتى صوتاً جميلاً، فالصوت الرقيق الشجي يظهر اللغة الجميلة المعجزة في التركيب والتأليف والإيقاع في كتاب الله عز وجل.

### هوامش البحث:

- 1- ينظر: المحافظ، البيان والتبيين، ج1، ص79.
- 2- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن الكريم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، 2004، ص173.
- 3- ابن منظور: لسان العرب، (باب وقع)، ص4896.
- 4- صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص92.
- 5- ابن منظور: لسان العرب، باب وقع، ص4895.
- 6- الفيروز أبادي: قاموس المحيط، باب الواو، فصل وقع، ص773.
- 7- صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص92.
- 8- ينظر: المرجع نفسه، ص93.
- 9- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نخضة مصر، القاهرة، 2001، ص435، 436.
- 10- شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، ط2، القاهرة، 1978، ص60.
- 11- لالوسي عثمان: الإعجاز الإيقاعي في القرآن الكريم، مذكرة ماجستير، إشراف عيسى خليج، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص25، 26.
- 12- ينظر: أحمد فهمي عيسى: تيارات الفكر والأدب في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، مطبعة نانسي، دوياط، مصر، 2004، ص376.
- 13- منير سلطان: الإيقاع الصوتي في شعر شوقي الغنائي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 2000، ص122.
- 14- لالوسي عثمان: الإعجاز الإيقاعي في القرآن الكريم، ص26، 27.

- 15- ينظر: عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000، ص 315.
- 16- محمد بوزواوي: قاموس مصطلحات الأدب، دار مدني، الجزائر، 2003، ص 53.
- 17- محمد أحمد وريث: في إيقاع الشعر العربي، الدار الجماهيرية، ليبيا، ط1، 2000، ص 53.
- 18- ينظر: كمال أبو ديب: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1981، ص 230، 231.
- 19- ينظر: عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد الأدبي، ص 101، 102.
- 20- ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص 96.
- 21- ينظر: سيد قطب: النقد الأدبي، دار الشروق، (دت)، ص 108، 109. ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص 96.
- 22- ينظر: محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن الكريم، فصل مطول بين فيه قوانين الإيقاع، دار عمار، ط2، عمان، 2000، ص 175-284.
- 23- ينظر: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف مصر، ص70، 71. وينظر بغدادي بلقاسم: المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 159.
- 24- سورة الزمر: الآية 23 .
- 25- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4، دار الشروق، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، القاهرة، 2003، ص 2039. وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني، ص 96.
- 26- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق الطبعة، الشرعية السادسة عشر، القاهرة، 2002، ص 85.
- 27- سورة الحج: الآية 01.
- 28- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 116.
- 29- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ص 2408.
- 30- ينظر: المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية، مطابع دار الهندسة، ط1، مصر، 1980، ص 678 .
- 31- تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني"، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1993، ص 269.
- 32- سورة الغاشية : الآية 13، 14 .
- 33- تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص 267، 268. وينظر: كمال الدين عبد الغني المرسي، الفواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الإسكندرية، 1999، ص 167 .

- 34- تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص 267، 268. وينظر: كمال الدين عبد الغني المرسي، الفواصل الآيات القرآنية، ص 167.
- 35- ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص 269.
- 36- ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص 270.
- 37- ينظر: المرجع نفسه، ص 270.
- 38- سورة البقرة: الآية 19.
- 39- سورة آل عمران: الآية 14.
- 40- سورة يوسف: الآية 25.
- 41- سورة الكهف: الآية 16.
- 42- ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص 272، 273.
- 43- سورة الفرقان: الآية 32.
- 44- سورة المزمل: الآية 04.
- 45- ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص 272، 273.
- 46- سورة الأعراف: الآية 204.
- 47- سورة النمل: الآية 21.
- 48- ينظر: محمد إبراهيم شادي: البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، مصر، ط 1، 1988، ص 55-59.
- 49- سورة النور: الآية 55.
- 50- ينظر: محمد إبراهيم شادي: البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص 59.
- 51- سورة آل عمران: الآية 26.
- 52- ينظر: محمد إبراهيم شادي: البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص 60، 61.
- 53- ينظر: المرجع نفسه، ص 60، 61.
- 54- ينظر: عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني، ص 135.
- 55- سورة النازعات: الآية 1-14.
- 56- ينظر: عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني، ص 136. وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص 171. وينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 111.
- 57- سورة النازعات: الآية 15-26.
- 4- ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 111. وينظر: عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني، ص 137، وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص 171.
- 59- ينظر صلاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: ص 169، 170، 171، 172.

- 
- 60- سورة هود: الآية 28.
- 61- سورة هود: الآية 27.
- 62- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ص 1873 .
- 1- ينظر: المصدر نفسه، ص 1874، 1873 .
- 64- سورة هود: الآية 28.
- 65- ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص92 .
- 66- سورة هود: الآية 45 .
- 67- سورة هود: الآية 82 .
- 68- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج 12، ص1915.
- 69- سورة هود: الآية 42، 43 .
- 70- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 113.
- 71- سورة هود: الآية 67 .
- 72- سورة هود: الآية 94.
- 73- ينظر: فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، ط1 عمان، 2006، ص 47 .
- 74- سورة هود: الآية 72 .
- 75- سورة هود: الآية 82، 83 .
- 76- سورة هود: الآية 98 .
- 77- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، 1971م، ص 48.
- 78- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ص 1934 .
- 79- سورة هود: الآية 120 .